جديدة على طريق الشعر العربى ، يجدد فيها القصيدة العربية ، ويرد إليها حياتها ، ويبعثها بعد موتها خلقا آخر ، عن طريق المزاوجة بين هذا التراث وبين عصره ، واتخاذه إطاراً يضم واقع حياته وصورة شخصيته ، فلم تكن ثورته الإحيائية إلا هذه المزاوجة الفنية التى حققت له ـ كما حققت للمتنبى من قبل ـ القصيدة البدوية الحضرية .

والأمر الذى لاشك فيه أن تراثية البارودى لم تحُلْ بينه وبين التعبير عن شخصيته ونفسيته ، ولم تستطع أن تضع بينه وبين عالمه المعاصر وواقعه الحى الذى يعيش فيه حجابا يرد الرؤية ، ويباعد بينه وبين تصويره ، فظلت شخصيته التى تحدد ملامحه وقسماته تطل علينا من وراء شعره ، وظلت تطل معها تجاربه الشخصية فى الحياة ، ومن خلالها تحققت فكرة التجربة الشعرية، لأول مرة فى شعرنا الحديث ، ومن هنا كان الدكتور محمد حسين هيكل دقيق الملاحظة حين سجل فى أول عبارة من مقدمته الممتازة لديونه أن « شعر البارودى حياته » وحين أكد ذلك فى قوله إن « شعره مرآة بيئته وزمانه » ، وهذا هو البارودى ـ كما أراه أيضا فى معاصرته ، أو بعبارة أعم ـ بين التراث والمعاصرة .

ولكن تتضح لنا هذه الشخصية البارودية ستوزع حياة البارودى على ثلاث مراحل تَنَقّلتْ بينها رحلة حياته ، لنرى كيف كان شعره فى كل مرحلة منها صورة لحياته الاجتماعية وحياته النفسية ، وكيف انعكست هذه الصورة على حياته الفنية .

مرحلة الشباب المبكر ، وهو يستقبل حياته بدراسته العسكرية ، وما حققه لنفسه فيها من اتصال بالجيش ومشاركة فى حروب الدولة العثمانية ، وتردد على تركيا ورَحلاته إلى فرنسا وانجلترا ، وهى مرحلة ربما تكون قد وصلت به إلى سنة ١٨٦٨ وهو يودع عامه التاسع والعشرين ، عندما بدأت الحياة السياسية تنحدر إلى هاوية أحس معها أن عليه دورا فيها لإنقاذها ، فى هذه